الكتابات التاريخية فى الغرب
عن الجبرتى وتاريخه

دكتور
فوزي السيد السيد المصرى
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الأداب- جامعة طنطا

١٩٩٧

اشتهرت مصر بمؤرخيها العظام وخاصة فى فترة حكم سلاطين المماليك (٦٤٨-٩١٨هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) التى ظهر فيها عدد كبير من المؤرخين قدموا لنا مادة تاريخية لا بأس بها، وعلى النقيض من ذلك كانت فترة الحكم العثمانى (٩١٨-١٢٢٠هـ/١٥١٧-١٨٠٥م) التى شهدت مصر فيها ركوداً سياسياً وحضارياً، ولم يكتب عن تلك الفترة سوى عدد قليل من مؤرخى مصر لأن عصور الإضمحلال لا تجد عادة من يكتب عنها. ولكن فى أواخر الحكم العثمانى ظهر مؤرخ عتيد هو عبد الرحمن الجبرتى (١١٦٧-١٢٤٠هـ/١٧٥٤-١٨٢٥م) الذى كان سخياً فى انتاجه على غير العادة. وكان ظهوره فذاً في وقته، واعتبره الجميع مؤرخاً متميزاً لا مثيل له فى بلاد العرب، ولمكانته الخاصة نال اهتماماً عالمياً فى الغرب والشرق على السواء. وكتبت عنه أبحاث عديدة، ولا غرو فى ذلك فهو شيخ مؤرخي عصره بلا منازع، وهو أعظم المؤرخين العرب فى الأزمنة الحديثة بلا جدال.

أسرة الجبرتى:

الجبرتى هو عبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم بن حسن بن على[(١)] وتنتسب أسرته إلى «جبره» أو «جبرت» وهى اقليم ساحلى يقع فى

(١) Raymond. A. : La fortune des Gabarti et leurs lines avec la caste dominate et les milieux commercants. p. 82.

جنوب شرق الحبشة(١). وقد نشأ الجبرتى فى أسرة اشتهرت بخدمة العلم فضلاً عن اتصالها بالمجتمع من خلال تجارتها الضخمة من جهة واتصالها بالطبقة الحاكمة من جهة أخرى(٢).

وكان للثروة التى كانت تمتلكها أسرة الجبرتى والرفاهية التى كانت تعيش فيها أثرها على وضع تلك الأسرة المادى والذى بلغ ذروته فى عهد حسن الجبرتى والد المؤرخ، وكان ذلك فى عام ١٧٥٠م، حيث كان الشيخ على بن محمد الجبرتى الجد الثالث للمؤرخ ميسور الحال، ذائع الصيت بفضل زواجه من زينب بنت الإمام والقاضى عبد الرحمن الجوينى والتى كانت تمتلك عقارات كثيرة أوقفتها جميعا لصالح ولديهما حسن وعبد الرحمن. وتزوج حسن بن على الجبرتى من مريم ابنه الشيخ محمد المنزلي الأنصارى وكانت هى الأخرى من ذوى اليسار حيث كانت تمتلك عدة عقارات وأوقاف مختلفة، ولما توفى زوجها فى عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م قامت بتربية وتعليم إبراهيم بن حسن - جد المؤرخ- الذى توفى عام ١١١٠هـ/١٦٩٨م، كما قامت بتربية وتعليم حسن بن إبراهيم- والد الجبرتى- بعد وفاة أبيه، وأوقفت عليه بعض عقاراتها وممتلكاتها(٣).

---

(١) Ullendorff. E.: The Ethiopians. An introduction to country and people. p.p. 113-117.

(٢) Raymond. A.: Op. Cit. p. 75.

(٣) Raymond. A.: Ibid, p. p.75-76.

أما عن العقارات والممتلكات التى أوقفتها مريم على حسن الجبرتى- والد المؤرخ- فيذكر الجبرتى أن بعضها كان يقع فى منطقة الصناديقية القريبة من الأزهر، كما أوقفت عليه بعض الحوانيت فى أماكن مجاورة للوكالة والبعض الآخر فى ضواحي الغورية والمرجوش، وكذلك دار فى منطقة المنزل بالقرب من المدرسة الأكبغاوية، وتعد هذه المناطق من أكثر المناطق التجارية ثراء فى القاهرة فى ذلك الوقت حيث كان ثمن الوكالة فى تلك الفترة يصل إلى مليون بارة، هذا فضلاً عن محل إقامة صيفى فى مصر القديمة كانت الأسرة تنتقل إليه للإقامة فيه فى وقت الفيضان(١).

وكانت مريم بعد وفاة زوجها حسن بن على الجبرتى قد تزوجت- للمرة الثانية- من الأمير على أغا التورى الذى كان أحد القادة الأتراك فى مصر حيث كان قائداً لحصون الطور والسويس الواقعة على البحر الأحمر، وكان حسن بن إبراهيم -والد المؤرخ- قد تزوج من ابنة على أغا عام ١١٣٧هـ/١٧٢٤م مما أكسبه نفوذاً تجارياً كبيراً بالنسبة لتجارة الشرق من البهارات والبن التى ترد عبر البحر الأحمر(٢).

وبنظرة فاحصة إلى ممتلكات والد الجبرتى التى عددها الجبرتى نستطيع أن نستدل منها على مدى ما كان عليه من ثراء وما وصل إليه

---

(١) Raymond. A. : Ibid., p. 76.

(٢) Raymond. A. : Ibid., p. 76.

من منزلة رفيعة، حيث كان يملك وكالة الكتان، وعدة حوانيت، وبيت كبير بالقرب من شاطئ النيل، وبيت آخر في مواجهة مسجد ميرزاكورباجي، ويذكر الجبرتي أن والده استطاع أن يزيد من حجم ثروته من خلال اشتغاله بالتجارة، كما كان له نشاط ثقافي واضح فزاد كل ذلك من قدره وأعلى من منزلته(١).

ومن الجدير بالذكر أن حسن الجبرتي – والد المؤرخ – قد حصل على قدر من ثروته تلك عن طريق زواجه من بنات الأسر الثرية، فلقد كان زوجه الأولى ابنة الأمير علي أغا الثوري التي كان والدها قائداً لحصني الطور والسويس على البحر الأحمر، وآل إليه الاشراف على إدارة إرثه بعد موته، وبعد موت ابنة هذا الأمير تزوج من إبنة إحدى الأسر الثرية في بولاق وهي صفية بنت رمضان سليبي، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان لحسن الجبرتي زوجة شرعية في كل مكان من أماكن اقامته. وفضلاً عن ذلك فلقد كان له أصدقاء عديدون، وتلاميذ ومماليك وخدم وعبيد من البيض وآخرين من الزنوج، كما بلغ عدد صبيانه أربعين صبياً(٢).

وكانت أسرة الجبرتي على علاقة قوية بحكام وأمراء مصر في تلك الفترة حيث كانت مريم زوجة حسن بن علي قد تزوجت من الأمير علي أغا الثوري، كما أن ستيته أم حسن الجبرتي – والد المؤرخ – قد تزوجت

---

(١) Raymond. A. : Ibid., p. 76.

(٢) Raymond. A. : Ibid., p.p 76-77.

بعد موت جده إبراهيم من محمد ميزو طبال أحد قادة الجند الأتراك بمصر، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان لحسن الجبرتى أصدقاء من الأمراء، منهم الأميرين إبراهيم وعبد الرحمن كتخدا، وكانا قد أهدياه منزلاً جميلاً بدلاً من منزلة المتواضع بالصناديقية[١].

وكما كان لأسرة الجبرتى علاقة قوية بالطبقة الحاكمة فقد كان لها علاقة قوية أيضاً بالحرفيين والتجار، حيث كان حسن الجبرتى-والد المؤرخ- على علاقة قوية بحرفيي وتجار القاهرة، وساعده ذلك على وضع مؤلف فى ترتيب الأوزان والقياسات التى كانت تسبب ارتباكاً كبيراً بين التجار، وفضلاً عن ذلك فقد قام أيضا باختراع الكثير من الآلات العلمية واقتناء مجموعة لا بأس بها من الآلات والأدوات التى جمعها من حرفيي عصره وكانت خاصة بالنجارين، والخراطين، والحدادين، والسمكرية، ومجلدى الكتب، والنقاشين، وغيرهم، وكان لتلك الأدوات شهرة كبيرة بالنسبة للصناعات والفنون فى القاهرة فى تلك الفترة[٢].

ورغم أنه لا يوجد لدينا إحصاء دقيق عن ممتلكات حسن الجبرتى- والد المؤرخ- إلا أنه يمكننا القول بأن الرفاهية المادية التى عاش فيها وتمتع بها قد مكنته من أن يكرس نفسه وامكانياته المادية للحياة العامة والإشتغال بالعلم فضلاً عن ممارسة هوايته فى اقتناء بعض الأدوات

---

(١) Raymond. A. : Ibid., p. 76.

(٢) Raymond. A. : Ibid., p.77.

المعبرة عن الفنون فى زمنه. وهذا كله جعله يعيش عيشة أحد كبار البرجوازيين فى القاهرة[1]. ولذا فقد كان من حق عبد الرحمن الجبرتى أن يفاخر بوالده وأن يقول عنه أنه كان يعد من الباشوات والأمراء المميزين فى عصره، والذين كانوا على علاقة جيدة بالباشوات الذين حكموا مصر فى تلك الفترة ما بين (١٧٤٠-١٧٥٠م) من أمثال على باشا (١٧٤٠-١٧٤١م) وراغب باشا (١٧٤٥-١٧٤٨م) وأحمد باشا (١٧٤٨-١٧٥٠م)، كما كانوا على علاقة طيبة أيضا ببعض أمراء هذا العصر من ذوى السلطان أمثال أسامة بك ذو الفقار وإبراهيم وعبد الرحمن كتخدا[2].

عبد الرحمن الجبرتى وكتابة التاريخ:

كانت نشأة الجبرتى فى بيت والده- عالم الأزهر- قد أثرت بلاشك فى اهتمامه بدراسة التاريخ، حيث نشأ بين علماء الأزهر سواء بمخالطتهم فى الأزهر أو بالإلتقاء بهم فى بيت أبيه، كما سمع بأخبار السابقين منهم واستفاد بما كان أبوه يرويه عليه من أخبار المماليك والكشاف والصناجق، فوجد نفسه وهو فى سن مبكرة بين عالمين كبيرين: يتمثل الأول فى العلم والدين بينما يتمثل الثانى فى السياسة والحرب

(١) Raymond. A. : Ibid., p.p 77-78.

(٢) Raymond. A. : Ibid., p. 79.

والدسائس والمال- وهكذا أثرت تلك الظروف التى عاش الجبرتى فى غمارها على إبراز ملكة التاريخ عنده[١].

وقد بدأ الجبرتى كتابته التاريخية بكتابة تراجم الأعلام القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) بعد أن عرض عليه الزبيدى[٢] ذلك بتكليف من الشيخ محمد المرادى قاضى دمشق[٣] فكرس كل وقته لإنجاز ما كلف به، وعكف عن جمع مادته العلمية التى استقاها من شواهد المقابر للتحقق من تاريخ وفاة أصحابها، فضلاً عن اتصاله بأقارب الموتى ليطلع على ما قد يكون لديهم من أوراق، كما تردد على الديوان للإطلاع على دفاتر الكتبة والمباشرين بالإضافة إلى الإعتماد على صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب الذى طلب منه الجبرتى أن يدون أسماء الناس وأعمارهم من خلال الصكوك والحجج الموجودة

---

(١) Ayalon. D.: The historian Al-Jabarti and his background. B.S.O.A.S, Vol. XXIII. part 2. p.p. 240-241.

(٢) هو العالم اللغوى السيد محمد مرتضى الزبيدى أحد أعلام الفكر والعلم فى العالم الإسلامى، وهو يمنى الأصل، وهو صاحب المعجم المشهور «تاج العروس فى شرح جواهر القاموس». ولد عام ١٧٣٢م وتوفي عام ١٧٩٢م.

عمر عبد العزيز عمر: دراسات فى تاريخ مصر الحديث، ص ٦٨.

(٣) Ayalon.D.: Op. Cit. p.p. 226-228.

بالمحكمة[١]. وفى غمرة انشغاله بتدوين «أخبار ووقائع» تلك الفترة فوجئ الجبرتى بوفاة الشيخ المرادى ١٢٠٦هـ (١٧٩١م) فتوقف عن متابعة بحثه حيث يقول «ففترت الهمة وطرحت تلك الأوراق فى زوايا الأهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر وتضيع». وهكذا انقطع الجبرتى عن كتابة التاريخ بعد وفاة الشيخ المرادى ولم يعد إليها فى شكلها الجديد إلا فى عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) أثناء نزول الحملة الفرنسية أرض مصر[٢].

ورغم ما يقال عن عدم اعتماد الجبرتى على النصوص التى أرخت لتاريخ مصر فى العصر المملوكى فإن الجبرتى يذكر أنه اطلع على مؤلف أحمد شلبى «أوضح الإشارة فيمن تولى مصر القاهرة» وهو مخطوط مملوك لجامعة بيل ويعود تاريخه إلى عام ١٧٩٥م، ويحتوى على ٢٦٦ ورقة، وهو المصدر الرئيسى لتاريخ مصر ابتداء من القرن السابع عشر حتى عام ١٧٣٧م[٣].

---

(١) Jones. M.: The First French Proclamation and Al-Jabarti, p.p. 13-33.

(٢) Ayalon.D.: Op. Cit. p.p. 226-228.

(٣) أندريه ريمون: ترجمه زهير الشايب: فصول من التاريخ الإجتماعى للقاهرة العثمانية، ص.٢٢٠.

الجبرتي والحملة الفرنسية:

من الجدير بالذكر أن عبد الرحمن الجبرتي الذى توقف عن متابعة بحثه بعدما بلغه نبأ وفاة المرادي قد عاود الكتابة التاريخية من جديد عندما بدأ في التأريخ لأحداث الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) حيث كتب مخطوطا بعنوان «تاريخ مدة الفرنسيس بمصر» أرخ فيه للشهور السبعة الأولى للحملة ابتداء من ١٠ محرم ١٢١٣هـ (٢٥ يونيو ١٧٩٨م) حتى نهاية شهر رجب من نفس العام (ديسمبر ١٧٩٨م)[١].

لقد عاصر الجبرتي الحملة الفرنسية على مصر وراقبها وسجل أحداثها، ومن خلال كتاباته التى تعتبر أقدم ما كتب باللغة العربية عن تلك المرحلة الهامة من تاريخ مصر، يستطيع الباحث أن يكون على علم بموقف المجتمع الشرقى المحافظ من حضارة الغرب وكذلك من فهم الفلسفات السياسية والإجتماعية المتصارعة في عصره، خاصة وأن مصر كانت قد ابتعدت عن التيارات الإقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية الغربية لمدة ثلاثة قرون تقريباً[٢].

---

(١) Moreh. S. : Reputed autographs of Abd Al-Rahman Al-Jabarti and related problems. B.S.O.A.S, Vol. XXVIII. part 3. p.p. 524-540.

(٢) Ayalon D.: Op. Cit. p.p. 228-234.

كان الجبرتى ذا شفافية عالية وموهبة فذة مكنته من استيعاب حقيقة الدخلاء على المجتمع المصرى، فالمماليك أرقاء دخلاء جلبوا من القوقاز، والعثمانيون أيضا دخلاء، وكذلك الحكام الذين يأتون ويذهبون، وكذلك محمد على- ذلك الديكتاتور القوى- ماهم جميعاً إلا أجانب وفدوا من جنوب شرق أوربا وآسيا الصغرى[١].

ومن الجدير بالذكر أن الجبرتى اعتمد فى عرضه لأحداث الحملة الفرنسية وأحداثها على الوثائق ونقلها بأمانة، حيث أورد صورة المنشور الأول الذى أذاعه نابليون بونابرت عند مجئ حملته إلى مصر[٢] وكان هذا المنشور أول إعلان رسمى فى وثيقة تخاطب المصريين فى أول يوليو ١٧٩٨م، حيث صدرت بعد رحيل الحملة الفرنسية عن جزيرة مالطة، وقام بكتابتها مستشرق اصطحب الحملة يدعى فنتور دى باراديس، وقد ترجم النص الأصلى لهذه الوثيقة إلى اللغة العربية وتمت طباعتها بعد نزول الحملة إلى الاسكندرية مباشرة ثم وزعت فى أنحاء مدينة الإسكندرية بعد احتلالها، وكانت تقرأ فى الأماكن العامة وتنشر على الجدران، كما تم إرسال نسخ منها إلى القاهرة، وقد ورد فى افتتاحية هذا المنشور عبارات مثل: «بسم الله الرحمن الرحيم.. لا إله إلا الله.. لا ولد له

---

(١) Toynbee. A.: Abdul Rahman Al-Djabarti and his times. p. 4.

(٢) Jones.M.: Op. Cit. p.p. 32-33.

ولا شريك.. فأما رب العالمين القادر على كل شئ قد حتم على انقضاء دولتهم.. لكن رب العالمين هو رؤوف وعادل على البشر.. وانني أكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى.. واحترم نبيه محمد والقرآن العظيم..» وجاء فيه أيضا.. «قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضا مسلمين خالصين.. واثباتا لذلك نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذى كان يحث دائما النصارى على محاربة الاسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين»(١).

وعلى الرغم من يقين الجبرتي الراسخ بأن الفرنسيين دخلاء على البلاد أتوا إليها من بلاد الفرنجة، ورغم نظرته لهم على أنهم متطفلين كأنهم جاءوا إلى مصر من كوكب آخر، ورغم يقينة بأنهم كانوا أشد تهوراً في اعتدائهم على المقدسات الإسلامية، ورغم ايمانه بأنهم غزاة استهانوا بالتقاليد والعادات المتوارثة(٢)، إلا أن الجبرتي أشاد بعدالتهم في التقاضي، وذلك من خلال المحاكمة العادلة التى أجريت لقاتل كليبر قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه(٣). كما لاحظ الجبرتي أن هناك

---

(١) Jones .M.: Ibid. p.p. 31-34.

(٢) Toynbee.A.: Op. Cit. p.4.

(٣) Toynbee. A.: Ibid. p.4.

تشابهاً بين الفرنسيين والمسلمين فى استخدامهم للعبارة الافتتاحية «بسم الله» فهى موجودة فى الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية، مع اختلاف أشكالها، وذلك رغم أن الفرنسيين لم يتمسكوا بدين لأنهم ماديون(١).

ومن المرجح أن الجبرتى عند نشره للمنشور الذى اصدرته الحملة كان متفهماً لطبيعة الثورة الفرنسية التى تنادى بالحرية والإخاء والمساواة، وأن التمييز بين الناس وبعضهم البعض يكون بالعقل والفضائل والعلوم. ومما ساعد الجبرتى على ترجمة المنشور معرفته بالفلسفة السياسية للثورة الفرنسية ويتضح ذلك عندما علق على كلمة «تسوية» وقبوله لها كاصطلاح سياسى لكنه رفضها دينيا لأن الله سبحانه وتعالى ميز أناس عن أناس آخرين، كما أن كلمة «حرية» لم يكن لها أى مضمون سياسي لديه حيث عرفها بأنها ضد العبودية(٢).

ومع علم الجبرتى بحقيقة الفرنسيين، ومشاهداته لأحداث الحملة وشفافيته المرهفة، فقد استطاع أن يدرك نقاط القوة والضعف فى سلوك غزاة مصر حيث عمد الفرنسيون إلى التأثير على المصريين بعرض بعض الانجازات العلمية الأوربية، وقد زاد الجبرتى هذا المعرض فلم يلفت انتباهه ولم يثر اهتمامه، ووصف المعروضات بأنها «لعب أطفال تعرض

---

(١) Jones.M.: Op. Cit.p. 34.

(٢) Jones. M.: Ibid.p. 35.

للتـأثير فـينا لكننا لن نخدع ببسـاطة». كما ذكر الجبرتى مثالاً آخر للتـأثيـر على المصريين تمثل فى أنه عندما اغـتـيل كليـبـر القـائد العـام للقوات الفرنسية بعد رحيل نابليون، فقد اقيمت للقاتل محاكمة عادلة قبل تنفيذ حكم الأعدام فيه، وشهيد الجبرتي المحاكة، فتأثر بعدالتها أيما تأثير، وقد رأى فيها الجبرتى أسلوبا فرنسياً فريداً لإقرار العدل[١].

وكـان من مظاهر تأثيـر نابليـون على العلمـاء هو تقـريبه منهم وجعلهم أعضـاء فى ديوانه، لأنه كان يعـتبرهم حلقـة الاتصـال بينه وبين عامة الشعب، ولم يكن اختيار العلماء وشغلهم وظائف فى الديوان يعنى أنهم هم الذين سيقررون ويحكمون، ولكن كان الفرنسيون ينظرون إليهم على أنهم ممثلين لإرادة الشعب، فـضلاً عن استـشـارتهم فى بعض الأمور التى شغلت فكر نابليون مثل استرجاع النظام والرخاء الذى كانت عليه مـصـر فى سـالف أيامـهـا[٢]. وهذا يعنى أن نابليـون سـار فى تقـريبه للعلماء على نفس سياسة المماليك فى هذا الشأن حيث احترموا العلماء لارتباطهم الروحى بالشعب[٣].

---

(١) Toynbee. A.: Op. Cit.p.p. 4-5.

(٢) ج. كريستوفرهيرولد: ترجمة فؤاد اندراوس: بونابرت فى مصر، ص ٢٤٩.

(٣) Dunne.J.H. : An Introduction to the history of education in modern Egypt. p.31.

مؤلفات الجبرتي:

أغرى مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر الجبرتي على معاودة الكتابة من جديد، وفي صورة جديدة تؤرخ لأحداث مصر في عهد الحملة على هيئة يوميات، وكان أول كتاب أقدم الجبرتي على تدوينه على هذا النحو مخطوط «مدة الفرنسيس بمصر» الذي يتناول الاحتلال الفرنسي من ١٠ محرم ١٢١٣هـ (٢٥ يونيو ١٧٩٨م) وينتهي بأحداث شهر رجب ١٣١٣هـ (ديسمبر ١٧٩٨م) ومن الواضح أنه كتب أثناء مجرى الأحداث بمصر وذلك لاحتوائه على تفاصيل أوفى وأهم مما جاء «بمظهر التقديس» أو «عجائب الآثار» عن نفس الفترة[١].

ومما تجدر الإشارة إليه أن قطعة من هذا المخطوط محفوظة بجامعة ليدن بهولندا، وهذه القطعة تتكون من احدى وخمسين صفحة تؤرخ للأشهر السبعة الأولى للحملة الفرنسية على مصر من أوائل المحرم ١٢١٣هـ (يونيو ١٧٩٨م) وحتى نهاية رجب من السنة ذاتها، وهي مكتوبة بخط الرقعة، ويتراوح عدد الأسطر بكل صفحة من صفحاتها ما بين ٢٥-٣٢ سطراً، وفي كل سطر ما بين ١٠-٢٠ كلمة، وتوجد بعض الإضافات الهامشية لبعض الأحداث التي يرجح أن الجبرتي قد نسيها. فاستدركها بعد ذلك وسجلها في الهامش بنفس الخط ويوجد على صفحة العنوان الكتابة الآتية :

---

(١) Moreh.S.: Op. Cit. B.S.O.A.S. Vol. XXVIII, part 3, p. 532.

هذا تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣هـ
إلى سنة ١٢١٦هـ تأليف العلامة عبد الرحمن
الجبرتى المصرى بخطه رحمه الله.

ومكتوب على الركن الأيسر فوق العنوان : تمليك باسم الشيخ محمد الأمير الحنفى الرشيدى بتاريخ ٦ ج (جمادى الأولى) سنة ٨١ (١٢٨١هـ) ومدون عليها ثمنها وقتذاك وهو تسعة قروش(١).

ويتضح من صفحة العنوان أن المخطوط كتب بخط الجبرتى مما يجعل له أهمية خاصة ويرجح موريه أن المخطوط كتب فعلاً بخط الجبرتى لأن الخط الذى كتب به هذا المخطوط يتفق مع مخطوط آخر لمظهر التقديس مودع بمكتبة جامعة كمبردج مكتوب عليه أنه بخط الجبرتى، كما يتفق مع مخطوط ثالث للجزء الثالث من «عجائب الآثار» موجود فى جامعة كمبردج أيضا مدون فى نهايتها أنه بخط الجبرتى(٢).

ويستفاد من عنوان المخطوط أن الجبرتى كان قد دون «تاريخ مدة الفرنسيس» كاملاً فى مؤلف خاص به أثناء احتلال الحملة لمصر، وقد أشار الجبرتى إلى هذا المؤلف فى مقدمة كتابه «مظهر التقديس» حيث قال :«ولقد كنت سطرت ما حصل من الوقائع، من ابتداء تملك

(١) Moreh. S.: Ibid. p.p. 524-540.

(٢) Moreh. S.: Ibid. p.p. 524-540.

الفرنسيس لأرض مصر إلى أن دخلها مولانا العزيز[١]. فى أوراق غير منظومة فى سلك الإجتماع والإتفاق، وكثيراً ما كان يخطر ببالى وإن لم يكن ذلك من شأن أمثالى أن أجمع افتراقها ولبسها بالتصريف اتساقها ليكون ذلك تاريخاً مطلعاً اللبيب على عجائب الأخبار وغرائب الآثار وتذكرة بعدنا لكل جيل»[٢].

ويذا يتضح لنا أن الجزء الأكبر من هذا المخطوط قد فقد ولم يبق منه سوى تلك القطعة التى تؤرخ لمدة الأشهر السبعة الأولى من الحملة الفرنسية على مصر.

ومن الواضح كما هو مسجل فى الركن الأيسر من الصفحة الأولى لهذا المخطوط «تمليك باسم الشيخ محمد الأمير الحنفى الرشيدى بتاريخ ٦ ج سنة ٨١هـ» ومدون عليه ثمنه أن هذا المخطوط قد اشتراه الشيخ محمد الأمير بعد وفاة الجبرتى بحوالى أربعين عاما[٣].

وبالإضافة إلى كتابة الجبرتى لمؤلفه السابق فقد كتب كتاباً جديداً بعنوان «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس» فى صفر ١٢١٦هـ

---

(١) هو الصدر الأعظم يوسف باشا.

(٢) عبد الرحمن الجبرتى: تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقى: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، ص ١٤.

(٣) Moreh. S.: Op. Cit. p.p. 524-540.

(١٨٠٢م)، وهو مخطوط محفوظ بمكتبة جامعة كمبردج[١]، ولأهميته الفائقة فقد اهتمت الدولة العثمانية به حيث كلف السلطان العثمانى كبير اطبائه مصطفى بهجت بترجمته إلى اللغة التركية، وقد كتب بعد ترجمته بأسلوب بليغ بعد أن أضاف إليه مترجمة مقدمة عن الثورة الفرنسية وتطورها حتى مجئ الحملة الفرنسية على مصر[٢].

وفى عام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) بدأ الجبرتى فى كتابة مؤلفه الضخم «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار»[٣] الذى بدا فيه الجبرتى متحفظاً إلى أقصى درجة فى ذكر ما يتعلق بالمصادر الخاصة بالفترة الأولى للحكم العثمانى لمصر، حيث لا يوجد أى دليل على أنه استعان بابن إياس أو القرمانى أو ابن زنبل الرمال باعتبارهم معاصرين للفتح العثمانى، كما لا يوجد أى دليل على أنه نقل عنهم، ولذا جاءت كتاباته عن تلك الفترة موجزة بدرجة كبيرة، بحيث لا يمكن بسهولة التعرف على المصادر التى نقل عنها[٤] أما الفترة المتأخرة للحكم العثمانى فى مصر

---

(١) Browne. E.G. :A Hand List of the Muhammadan Manuscripts, I, 207, No, 1058. (Qq 214).

(٢) Moreh. S.: Op. Cit. p.p. 524-540.

(٣) Moreh. S. : Op. Cit. p. 529.

(٤) Holt. P.M.: Al-Jabarti's Introduction to the history of Ottoman Egypt. B.S.O.A.S, 1962, p. 39.

والفترة المملوكية فقد اعتمد فيها الجبرتى على مؤلف أحمد شلبى «أوضح الإشارة فيمن تولى مصر القاهرة» وهو مخطوط يعود تاريخه إلى سنة ١٧٩٥م ويعتبر المصدر الرئيسى لتاريخ مصر ابتداء من القرن السابع عشر حتى سنة ١٧٣٧م[١].

ويعتبر كتاب «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» من أكبر أعمال الجبرتى ومن أعظمها شأنا، وقد وصفه ماكدونالد فى دائرة المعارف الإسلامية بأنه أعظم تواريخ مصر فى القرن الثانى عشر والثالث عشر الهجريين (القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلاديين، فضلاً عن أهميته فى التأريخ للحياة الإجتماعية فى مصر. وهى ميزة تجعل لتاريخه أهمية خاصة[٢]، كما يذكر اندريه ريمون أن عجائب الآثار هو المصدر الوحيد لتاريخ القاهرة فى العصر المملوكى الذى اتيح له أن ينشر[٣].

ومؤلف «عجائب الآثار» يوجد منه عدة مخطوطات بدار الكتب المصرية بالقاهرة، وبالمكتبة الأزهرية، بعضها كامل وبعضها يمثل أجزاء ناقصة، كما توجد عدة مخطوطات أخرى فى العراق وبريطانيا وفرنســا

---

(١) اندريه ريمون: ترجمة زهير الشايب: المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(٢) Macdonald, D.B.: (Art al-Djabarti) Encyclopedia of Islam. First edition, Vol. I. p. 986.

(٣) اندرية ريمون: ترجمة زهير الشايب: المرجع السابق، ص ٢٢١.

وألمانيا وهولندا، والاتحاد السوفيتي والهند، فضلاً عن عدة طبعات للكتاب متداولة بالمكتبات المصرية[١].

ومن خلال المقارنة التى قام بها موريه لطبعة بولاق الخاصة بكتاب «عجائب الآثار» بالمخطوطات الأخرى لهذا الكتاب والموجودة فى مكتبة جامعة كمبردج، ودار الكتب الأهلية والمتحف البريطانى اتضح أن هناك فقرات عديدة فى طبعة بولاق غير موجودة فى المخطوطات المذكورة، فضلاً عن وجود اختلافات كبيرة فى الأسلوب والقواعد بين هذه المخطوطات وبين طبعة بولاق[٢].

وجه الشبه بين الجبرتى وغيره من المؤرخين والمفكرين :

هناك شبه كبير بين الجبرتى وعديد من المؤرخين والمفكرين الذين برزوا على مر العصور، ومنهم المؤرخ الصينى الكبير سوماتشين الذى عاش فى الفترة من ١٤٥-١٨٦ ق.م، حيث كانت طريقة سوماتشين فى التأريخ تتمثل فى فكرته (Shih -Chi) أى سجلات المؤرخ وهى أعظم ما كتب عن التاريخ الصينى فى تلك الفترة، وكان الشبه بينها وبين عجائب الآثار كبيراً فى عدة نقاط منها :

---

(١) Moreh. S.: Op. Cit. p.p. 523-526.

(٢) Moreh. S.: Ibid. p. 534.

١- أن كليهما يعتبر تواريخ معاصرة بمقدمات «للتاريخ العالمى»، ورغم أن سجلات المؤرخ تبدأ بالأصل الأسطورى للتاريخ الصينى إلا أن جزءها الرئيسى مؤلف من التاريخ المعاصر، وكلا المؤرخين قام بتأريخ واقع عصره الخاص.

٢- أن كليهما مؤلف من سير وتواريخ ويوضح التناول الفردى للتاريخ.

٣- أن كليهما يعتبر تأليف أو جمع خاص(١).

وفضلاً عن ذلك فهناك وجه آخر للشبه بين الجبرتى وسوماتشين من حيث رؤية كل منهما لفائدة التاريخ(٢).

وعلى الرغم من التشابه الكبير بين هذين المؤرخين إلا أنهما كانا مختلفين فى نقطة جوهرية وهى النظام الذى سارا عليه، فعلي حين كان نظام الجبرتى (معتمداً على الله)، كان نظام سوماتشين معتمداً على الطبيعة والكون، حيث كتب فى مقدمة عمله «سجلات المؤرخ» الدافع الذى دفعه لكتابه التاريخ وهو الظلم الذى تعرض له، حيث أدين أثناء عمله الأول كمنجم للبلاط وحكم عليه بالخصى رغم براءته، واعتبر أن ذلك فضيحة كبرى له إذ «ليس هناك فعل أقبح من فضيحة الأجداد، وليس هناك فضيحة أمر من الخصى»، «وان الواجب السامى للإنسان

(١) Wataru. M.: Al. Jabarti as a thinker. p. 16.

(٢) Wataru. M.: Ibid.p. 17.

هو ألا يفضح أجداده أو يفضح نفسه» ومع ذلك فلم ييأس أو يتوقف عن الكتابة وألف كتابه «سجلات التاريخ»(٢١).

وهناك شبه آخر بين الجبرتي والأديب والمفكر الياباني الكبير موتوري نوريناجا (١٧٣٠–١٨٠١م) والذي كان معاصراً للجبرتي، حيث صاغ فكرة الـ (Kodo) وهو الطريق القويم الذي مثلت فيه اليابان القديمة كمجتمع طبيعي مثالي على يد الأباطرة الذين كانوا يمثلون الخليفة المباشر لله. وشكلت هذه الفكرة نقداً جذرياً لمجتمع توكوجاوا والشوجونات التي عاش فيه. وكانت الفكرة متعلقة بالسلوكيات اليابانية للشعب في ذلك الوقت والمعرفة بالثورات القروية والثورات الشعبية للمدن تحت شعار «يونا أوشي» أي «إصلاح العالم» وكانت بعض تلك الثورات ترفع شعار «بوتن» أي التشكل الياباني للآلهة الذي ينتمي بوالطما على أصلاحهم. وكانت حركات الشعب الياباني هي أهم التيارات التي أدت إلى الإصلاح الميجي الذي كان نقطة تحول خطيرة في تقدم اليابان وتحضرها(٢٢).

ويذكر واطسون أن هناك تشابهاً بين كل من ابن خلدون والجبرتي من حيث نظرتهما للبشر القدر وهي التي مكنتهما من تأريخ وتسجيل واقعهما السيئ. ومع هذا فقد كان الجبرتي أكثر تفاؤلاً من ابن خلدون في

(٢١) Watson. M.: Ibid. p.16.

(٢٢) Watson. M.: Ibid. p.13.

نظرته للواقع الذى يعيشه حيث أدرك مقاومة أهل القاهرة للغزاة الأجانب والحكام العثمانيين، كما أدرك ثورتهم التى قاموا بها عام ١٨٠٥م التى اجبروا فيها السلطان العثمانى على قبول تولية محمد على على مصر، وقد ساعدت هذه المواقف الجبرتى أن يكون أكثر إيجابية فى استيعاب التاريخ عن ابن خلدون(١).

هناك تشابه آخر بين الجبرتى وأحمد بن أبى ضياف المؤرخ التونسى الذى يمكن اعتباره جبرتى تونس، فكلاهما كتب تاريخا شاملاً لبلديهما كما يقدم معلومات ثرية عن فترة حياتهما، وكلاهما كتب من منظور قريب من السلطة السياسية، كما عاشا فى عصر ملئ بالتغيرات السياسية والاجتماعية العظيمة، وتأثر بدوافع جديدة قادمة من الغرب. ويمكن أن نربط بين هذين المؤرخين من جهة أخرى حيث أن كليهما كان راوية حصيفاً وملاحظاً دقيقاً(٢).

وثمة شبه كبير آخر يربط بين الجبرتى ومؤرخ عظيم آخر ألا وهو المؤرخ الانجليزى العظيم ارنولد توينبى الذى ذكر أن التجربة التى خاضها الجبرتى فى جيله بمصر تشبه إلى حد كبير تجربة أوربى مثله والذى كان قد بلغ فترة الشباب عام ١٩١٤م، أما الجبرتى فقد بلغ مرحلة الشباب فى الطور الأخير من عهد الإستقرار، وعاش ليشهد ذلك

---

(١) Wataru. M.: Ibid. p.14.

(٢) Brown. C:. : The Tunisian Al-Jabarti. p. 47.

التدمير الدرامى الذى نشأ عنه نظاماً مستقراً، وقد حدث ذلك عندما استولى نابليون على مصر بغتة، وإذا كان الإحتلال الفرنسي لمصر حدثاً عابراً فقد امتد العمر بالجبرتى ليشهد محمد على يتعهد ويتولى تنفيذ ثورة اقتصادية واجتماعية رسم الفرنسيون خطوطها (١).

وكان محمد على كنابليون مثله فى تلك القلة من الرجال الذين حولوا مجرى التاريخ. ويشغل محمد على فى تاريخ «دار الإسلام» نفس مكانة بطرس الأكبر فى تاريخ روسيا ، كما أنه يشبه الساسة الذين أحدثوا ثورة ميجى فى اليابان، وحقاً كان محمد على أحد أولئك المصلحين العصريين الذين غيروا وجه العالم. وإذا كان الجبرتى قد مات فى عام ١٨٢٥م فإنه شهد المرحلة الأولى من مراحل الثورة الإقتصادية والإجتماعية التى أحدثها محمد على فى مصر، والتى كانت قد بدأت فى بريطانيا قبل نهاية القرن الثامن عشر (٢).

وفضلاً عن كل ذلك فإن أوجه شبه أخرى بين الجبرتى والمؤرخ اليونانى العتيق ثوكيديدس الذى كتب عن تاريخ حقبة شاذة من تاريخ الحضارة التى عاش وترعرع فى ربوعها (٣). كما كان هناك شبهاً قوياً

---

(١) Toynbee. A.: Op. Cit. p.3.

(٢) Toynbee. A.: Ibid. p.3.

(٣) Toynbee. A.: Ibid. p.5.

بين الجبرتي والعديد من المفكرين والمؤرخين من أمثال روسو وكارل ماركس((١١)).

وخلاصة القول فإن بوسع مصر أن تفاخر بالجبرتي، كما تفاخر به سائر دول العالم الفسيح. فذلك المؤرخ الفذ الذي تمكن من إدراك التقلبات التي حدثت في عصره وسجلها بإحساس صادق جعل لمؤلفاته قيمة كبيرة ومغزى حقيقي، فخلد التاريخ اسمه في سجل المؤرخين العظام، واهتم به كثير من مفكري ومؤرخي العالم الذين كتبوا عنه العديد من المؤلفات أشادوا فيها بصدقه ودقة تعبيره، وهكذا أصبح الجبرتي وتاريخه نبراساً هادياً لكل من يتصدى لكتابة تاريخ مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

((١١)) Watanu. M.: Op. Cit. p.13.

مراجع البحث

أولا: المراجع العربية:

١- اندريه ريمون: ترجمة زهير الشايب: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، القاهرة، ١٩٧٤م.

٢- ج. كريستوفر- هيرولد: ترجمة فؤاد أندراوس: بونابرت في مصر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

٣- عبد الرحمن الجبرتي: تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، القاهرة، ١٩٦٩م.

٤- عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٣م.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

1- Ayalon. D.: The Historian Al-Jabarti and his background. B.S.O.A.S. Vol. XXIII. part, 2, 1960.

2- Brown. C,: The Tunisian Al-Jabarti, In Abd Al-Rahman Al-Jabarti, Cairo, 1976.

3- Brown. E.G.: A Hand List of the Muhammadan Manuscripts, Cambridge, 1900, I. 207. No. 1058 (Qq 214).

4- Dunne. J. H. : An Introduction to the history of Education in Modern Egypt, London, (n.d.).

5- Holt. P.M.: Al-Jabarti's Introduction to the history of Ottoman Egypt, B.S.O.A.S, Vol. XXV, I, 1962.

6- Jones. M : The First French Proclamation and Al-Jabarti, In Abd Al-Rahman Al-Jabarti, Cairo, 1976.

7- Macdonald. D.B.: "Art Al-Djabarti" Encyclopedia of Islam, First Edition, Vol. 1, 1913.

8- Moreh. S.: Reputed Autographs of Abd Al-Rahman Al-Jabarti and Related Problems. B.S.O.A.S., University of London, Vol. XXVIII, part, 3, 1965.

9- Raymond. A.: La Fortune Des Gabarti et Leurs Lines avec La Caste Dominate et les Milieux Commercants, In Abd Al-Rahman Al-Jabarti, Cairo, 1976.

10- Toynbee. A.: Abdul Rahman Al-Djabarti and his times, In Abd Al-Rahman Al-Jabarti, Cairo. 1976.

11- Ullendorff. E.: The Ethiopians. An Introduction to Country and People. Oup. 1960.

12- Wataru. M.: Al-Jabarti as a thinker, In Abd Al-Rahman Al-Jabarti, Cairo, 1976.

رقم الإيداع ٩٧/٩٧١٧
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977 - 19 - 4037 - 6

التركى
للكمبيوتر وطباعة الأوفيست – طنطا